موقف القبائل العربية في ليبيا من قيام الدولة الحفصية وسقوطها في الفترة ما بين (658هـ/ 1259م- 950هـ/1543م)

حسن أحمد محمد أحمد بن عيسى
الهيئة الليبية للبحث العلمي

تاريخ الاستلام 2024/09/09

المقدمة

بعدما بسطت الدولة الموحدية نفوذها على هذه المنطقة في سنة 555هـ/1160م أصبحت إفريقية مقاطعة موحدية عاصمتها مدينة تونس وعين لها الخليفة عبد المؤمن ابنه أبا إسحاق إبراهيم وإلياس عليها .

وعلى إثر ذلك تحسن الوضع تحسناً ملحوظاً في إفريقية فانبعثت الحياة الاقتصادية والثقافية التي كانت قد شهدت تدهوراً كبيراً منذ وصول القبائل العربية من بني هلال وسليم، وضعف السلطة الحاكمة آنذاك المتمثلة في بني زيري.

إلا أن هذا الهدوء النسبي لم يستمر طويلاً، فقد تغير الوضع بسبب عدة انتفاضات حدثت في المنطقة كان أكبرها ثورة بني غانية وثورة قراقوش التي جندت لها الدولة الموحدية كافة إمكانياتها، وكان الخلفاء يتولون بأنفسهم في بعض الأوقات الحملات ضد هؤلاء المتمردين مثل الخليفة المنصور وابنه الناصر اللذان استطاعا توجيه ضربات موجعة إلى أولئك المغامرين، غير أنهم لم يستطيعا القضاء عليهما نهائياً، فأوكل إلى أحد قادته الكبار مهمة مطاردتهم وهو الشيخ عبد الواحد بن أبي حفص كـ والي على إفريقية، وهذا التعيين الذي سيكون بمثابة تغير سياسي مهم في هذه المنطقة، بقيام بني حفص بالانفصال عن الدولة الأم وتكوين دولتهم التي سميت بالدولة الحفصية.

تعود أصول الحفصيون إلى قبيلة هنتانة شعبة من قبيلة المصامدة الكبرى، والتي قامت بدعوة المهدي بن تومرت وساندتها، وعندما قامت الدولة الحفصية بإفريقية، فإن سكان طرابلس وضواحيها رحبوا بهذه الدولة والتي اعتبرت امتداداً للدولة الموحدية، ووجدوا فيها فرصة أكبر لتقديم النجدة والعون نتيجة وجود صاحب القرار بالقرب منهم وليس كما كان في عهد الموحدين في مراكش عندما كان اتخاذ القرار الخاص بهم يحتاج إلى وقت طويل حتى يصدر من الخليفة الموحدي في مراكش، ولكن هذه العلاقة بين القبائل العربية

في طرابلس والدولة الحفصية سرعان ما شابها الاضطراب نتيجة للوضع السياسي والمعاملة التي تعامل بها الأمراء الحفصيون مع هذه القبائل.

ومن هنا بدأ الاضطرابات والثورات ضد الدولة الحفصية حيث ساندتها القبائل العربية للتخلص من سيطرة الدولة الحفصية.

أولاً: قيام الدولة الحفصية ودخول طرابلس تحت حكمها :

عندما قامت الدولة الحفصية(*) بإفريقية والتي تعتبر استمراراً للدولة الموحدية فإن سكان طرابلس وضواحيها رحبوا بهذه الدولة والتي اعتبرت استمرار للسلطة الموحدية، ووجد الأهالي في الدولة الحفصية فرصة أكبر لتقديم النجدة والإعانة لهم في أسرع وقت ممكن نتيجة وجود صاحب القرار بالقرب منهم وليس كما كان في ظل الموحدين عندما كان اتخاذ القرار الخاص بهم يحتاج إلى وقت طويل حتى يصدر من الخليفة الموحدي في مراكش ويوضع موضع التنفيذ، أما عن القوات الموحدية التي كانت تتمركز بطرابلس كانت مهمتها بالدرجة الأولى حفظ النظام والأمن والدفاع عن المدينة ضد الأطماع الخارجية والداخلية ، وتركت بقية الأمور سواء منها السياسية أو الاقتصادية بيد الأهالي وبالتنظيم مع الوالي الموحدي بها، فانصرف الأهالي لمزاولة نشاطاتهم الاقتصادية على أكمل وجه، ولما جاءت الدولة الحفصية رحب أهالي طرابلس بها وأعطوا ولاءهم لها بإخلاص، حيث لعبوا دوراً مهماً في الأحداث التي أدت إلى وصول الأمير أبي زكريا وانحازت إلى جانبه ضد أخيه وتجندت في صفوفه لقتال أبي محمد(ابن خلدون، 1992، ص593) وقد راعى الأمير أبو زكريا هذا فعين على طرابلس والياً من مشيخة الموحدية وهو يعقوب بن يوسف بن محمد الهرغي(**) ويكنى بأبي عبد الرحمن، وبقي معه عسكر من الموحدين لحماية المدينة من الغارات التي تشنها بعض القبائل الخارجة عن سلطة الدولة من وقت لآخر، وقد استطاع هذا الوالي أن ينظم أمور البلاد، فآخى بين قبائلها المتصارعة وكسب ودهم وصاروا رهن إشارته بل إنه استخدمهم في أغراض الجباية وحفظ الأمن(ابن خلدون، 1992، ص599)، وأخذ يدفع لهم الرواتب .

(*)أبو حفص عمر زعيم قبيلة هنتانة، ولد حوالي عام 485هـ/1092م، وكان اسمه فصكه فسماه ابن تومرت بعمر وكان يكنى بعمر ينتي ويعتب من أقرب أعوان ابن تومرت .

(**)عين واليا على طرابلس سنة 626هـ/ 1228م، ويعتبر أول وال للحفصيين في طرابلس.

وقد وقع خلاف بين هذا الوالي والأمير الحفصي أبو زكريا بسبب تأثر ذلك الوالي لموت صديقه محمد الجوهري الذي قتله الأمير الحفصي في سنة 639هـ/1241م وعند طلب منه الأمير المثول بين يديه، خاف من المصير الذي سيواجهه، فعزم على وضع خطة للاستقلال بطرابلس عن البلاط الحفصي، واستشار محمد بن القاضي أبي عمران بن عيسى الذي وافقه على ذلك وأعد له خطبة ليلقيها بيوم بيعته كان منها في وصفه بقوله: "القائم بالمدينة البيضاء (يعني طرابلس) ذات الرمال الفصال بهدايته بين الحلال والحرام"(التجاني، 2005، ص268).

وعندما علم أهالي طرابلس والقبائل المجاورة لها بما يخطط له أبو يعقوب تدارسوا الأمر فيما بينهم واستقر رأيهم على القبض عليه قبل أن يجهر بدعوته ويكثر مناصروه ومساندوه، وتم ذلك في الليلة التي أراد في صبيحتها الإعلان لثورته، وقبضوا عليه هو وأعوانه وحبسوهم وأرسلوا إلى أبي زكريا في أمرهم، فجاءهم الرد بقتلهم فقتلوا في شهر شوال عام 639هـ/1241م(التجاني، 2005، ص268) (ابن خلدون، 1992، ص598).

ونتيجة لهذا الوفاء الذي قام به أهالي طرابلس تجاه الدولة الحفصية فقد قدر الأمير أبو زكريا هذا العمل لسكان طرابلس، وعمل هو ومن أتى بعده على توفير الأمن لهذا البلد، مما أدى إلى استقراره وازدهاره اقتصادياً وثقافياً، وتنفيذاً لهذه السياسة قام الحفصيون بتعيين قاضي من أهالي طرابلس هو أبو موسى عمران بن موسى بن معمر الهواري[*] (ابن القنفذ، 1968، ص125). الذي ولي قضاء طرابلس ما يزيد عن ثلاثين سنة أي من بداية العهد الحفصي في طرابلس حتى سنة 658هـ/1259م(التجاني، 2005، ص27).

ثانياً: العلاقة بين القبائل العربية والدولة الحفصية:

إن المتتبع لدراسة العلاقة بين القبائل العربية القانطة في إفريقية والدولة الحفصية يتضح له أن هذه العلاقة كانت مضطربة حسب الوضع السياسي والمعاملة التي يتعامل بها الأمراء الحفصيون مع هذه القبائل، حيث نرى أن هذه القبائل قد وقفت إلى جانب الدولة الحفصية في بدايتها وساندتها، ويتضح ذلك جلياً في محاولة الوالي أبي يعقوب الهرعي الذي حاول الاستقلال بطرابلس في بداية العهد الحفصي، ولكن هذه

(*) بعد سنة 658هـ/1259م، طلب منه السلطان الحفصي المستنصر بالله القدوم إلى تونس وولاه قضاءها ما يزيد على العشرين شهراً إلى أن توفي في تونس سنة 660هـ/1261م (حنان، 2010، ص109)

القبائل وقفت ضده واعتقلته وأرسلت إلى الأمير أبي زكريا في شأنه هو ومن معه حيث أمر بقتلهم(التجاني، 2005، ص268)، وهذا دليل واضح على أن القبائل العربية رحبت بالدولة الحفصية ووقفت إلى جانبها ضد أي خطر يحدق به .

وقد ساعد العرب الحفصيون في فتح تلمسان(*)(الإدريسي، 1994، ص44) سنة 639هـ /1241م عندما استعان أبو زكريا بعرب بني سليم ورياح، كما حشد أحياء زغبة وبهم تمكن من دخول تلمسان ومد سلطان الحفصيين إلى المغرب الأوسط(ابن خلدون، 1992، ص80)، (الزركشي، 1289، ص29) .

وكان كعوب بن سليمان، ودياب وأفاريق بني هلال عامة من أحلاف الدولة الحفصية في بعض الأوقات(ابن خلدون، 1992، ص289)، وكان عوف بفرعيه مرداس وعلاق على علاقة طيبة بالحفصيين أول الأمر، ثم سخط شيخ مرداس على الدولة الحفصية فانتقلوا إلى زاغر بنواحي المغرب (ابن خلدون، 1992، ص74).

أما الزواودة فكانوا مخالفين أول أمرهم ثم عادوا للطاعة سنة 647هـ/1249م(ابن خلدون، 1992، ص624).

وفي عهد أبي زكريا الحفصي مثل العرب قسماً من أقسام الجش الحفصي(العامري، 1974، ص24)، كما كان العرب من دافعي الضرائب زمن أبي زكريا كذلك، وقد خصص هذا لأمير الحفصي وظيفة تسمى صاحب العمود(**)(الزركشي، 1289، ص29).(الشماع، 1984، ص57)، كان القائم بها أبو يحيى يجمع الضرائب من البدو وأهل الريف(الزركشي، 1289، ص29).

أما في عهد المستنصر الحفصي فقد شهدت العلاقات بين الدولة الحفصية القبائل العربية صراعاً شديداً أكثر من عصر أبيه، إذ لجأت القبائل العربية إلى مساندة الثائرين ضد السلطات الحفصية وخاصة الثائرين

(*) تلمسان: هما مدينتان متجاورتان مسورتان، إحداهما قديمة والأخرى حديثة، والحديثة اختطها المتلمون ملوك المغرب، وأسسها تافرزت، فيها يسكن الجند وأصحاب السلطان وأصناف من الناس، واسم القديمة أقادير يسكنها الرعية.

(**) وتسمى جباية مال العمود– أي الخيام كما جاء عند ابن خلدون، وعند ابن الشماع بالألف واللام وهي جبايية الأموال.

من البيت الحفصي نفسه، كما ساعدوا بعض قادة السلطان الحفصي ومكنوهم من الهروب، وإجارتهم من السلطان منهم ظافر مولى المستنصر(*) الذي فر إلى عرب الدواودة (الزركشي، 1289، ص33) .

ونلاحظ أيضاً أن العلاقة بين الأمير أبي إسحاق إبراهيم بن أبي زكريا والقبائل العربية قد اتسمت بالعداء(**)(الزركشي، 1289، ص43)، ويرجع ذلك إلى حدة الطبع التي كانت عند الأمير وعدم نظرته إلى عواقب لأمور، قد خرجت عليه القبائل العربية واستولت على بعض القرى بإفريقية. (الزركشي، 1289، ص43).

ومن خلال ما تقدم يتضح لنا أن العلاقة بين القبائل العربية والسلطة الحفصية، كانت مضطربة حسب الأهواء السياسية وحسب معاملة الأمراء الحفصيين لهذه القبائل، فإذا استخدم بنو حفص سياسة اللين والمهادنة كسبوا هذه القبائل وأمنوا شرها، أما إذا حدث العكس فإن هذه القبائل تكون العدو الأول والخصم اللدود للدولة الحفصية .

ثالثاً: دور القبائل العربية في صد العدوان الخارجي على إفريقية :

لقد كانت بلاد المغرب العربي بشكل عام هدفاً للصليبيين، بعد أن فقدوا الأمل في احتلال المشرق العربي، ولهذا فقد وجه الصليبيون عدة حملات إلى بلاد إفريقية والمغرب كان أولها وأخطرها على، الحملة التي قام بها وقادها بنفسه لويس التاسع واستهدف بها بلاد إفريقية (تونس) مقر السلطة الحفصية في ذلك الوقت .

ويعدها العديد من المؤرخين وخاصة الدارسين منهم لتاريخ أوروبا، بأن تعد من ضمن الحملات الصليبية، وذلك لأن طابعها شمل التعصب والحقد ضد الإسلام والمسلمين، فقد ضم جيش لويس التاسع جنوداً من فرنسا وغيرها من البلدان الأوروبية(*)(ابن خلدون، 1992، ص290)، بعد أن طلب لويس التاسع من

(*) وكان قد فر إثر سعاية ضده لدى السلطان المستنصر، بعد ن تمكن من قتل ابن عم المستنصر أبي عبد الله محمد اللحياني الذي حدثته نفسه بالثورة ، كما قتل عدداً آخر من أقارب الأمير المستنصر بالشبهة، وذلك لحماية الدولة، لكن الواشين استغلوا هذه الفرصة، فخاف ظافر على نفسه، وفر إلى العرب فأجاروه

(**) وذكر الزركشي أنه كان فيه غلظة وشجاعة ... وكان ولده الأمير أبو زكريا يرد عليه أكثر وامره بالتلطف ... وهو أول من كتب البلاد الغربة بالحجة للعرب.

(*) كانت مناطق المغرب هدفاً للصليبيين، وخاصة عندما فقدوا الأمل في احتلال المشرق، ولقد توجهت عدة غزوات صليبية إلى إفريقية زمن الدولة الحفصية كان أخطرها ما قام به لويس التاسع من غزو تونس سنة 668هـ/1269م، وتمكن الصليبيون من النزول إلى المدينة

الكنيسة أن تمده بالعون، وأن تقوم بحث ملوك النصرانية لمناصرته، وأن تمده بأموال الكنيسة حتى تساعده في الإنفاق على حملته، وكان عدد القوات الصليبية كما قدرها بعض المصادر بحوالي ستة وثلاثين ألف جندي منهم ستة آلاف فارس، استقلوا حوالي ثلاثمائة سفينة بين الكبيرة والصغيرة، وقادهم سبعة من ملوك النصارى وأمرائهم(ابن خلدون، 1992، ص290).

وفي أثناء استعداد السفن الصليبية للإرساء في قرطاجنة، كان الأمير الحفصي المستنصر يعقد مجلس الحرب ويستعد لملاقاتها ومقاومتها، وقد أصدر أوامره بالاستعداد لهذه الحملة، وأرسل في أنحاء المغرب الكبير يطلب الحشد، أنه: "لما نزلت النصارى تونس أيام الأمير أبي عبد الله المستنصر وأخذوا بلاد قرطاجنة وتونس، استنفر الأمير أبو عبد الله أهل إفريقية، كتب إليهم قوله تعالى ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾(سورة التوبة : الآية 41) (المالكي، 1328، ص264).

فوافته الأمداد من كل ناحية سواء إفريقية أو من المغرب، وأخذ المستنصر ينظم هذه الحشود المتطوعة فعين على رئاستها رجالاً من دولته، واختار سبعة قواد جعل الرئاسة العامة لاثنين منهم هما: يحيى بن صالح، يحي بن أبي زكريا(ابن خلدون، 1992، ص392)، واجتمع من المسلمين عدد لا يحصى، وخرج الصلحاء والفقهاء والمرابطين لمباشرة الجهاد بأنفسهم(ابن خلدون، 1992، ص290) .

وقد ذكر ابن قنفد في تقدير عدد الجيش الإسلامي أن عدد الرماة وصل إلى أربعين ألفا، وفي نظري هذه مبالغة يفهم منها مدى ما أخذته الدولة الحفصية من استعدادات (ابن قنفذ، 1968، ص132) (المطوي، 1986، ص207) .

هذا ومن جانب آخر فقد أشار العديد من المؤرخين إلى أن المستنصر لم يكن موقفه قوياً وحاسماً في التصدي للصليبيين، حيث ذكر ابن خلدون: "أن المستنصر التزم القعود بإيوانه مع بطانته وأهل خاصته"(ابن خلدون، 1992، ص670).

وهذا دليل على أنه لم يكن يؤمن بالنصر وأنه كان متهيئاً للفرار عندما يحين وقته، ولعل هذا الموقف من المستنصر الحفصي هو الذي جعل سكان إفريقية والمغرب بشكل عام وبكل أطيافهم وطبقاتهم يخرجون لمباشرة الجهاد بأنفسهم، أن الكثرة الكاثرة من الجموع الإسلامية التي احتشدت لمجابهة الغزاة الصليبيين

القديمة قرطاجنة وتحصنوا بخرائبها، لكن المسلمين تمكنوا من حصرهم في هذا المكان فلم خرجوا منه، وبدأ المسلمون حرباً أشبه ما تكون بحرب العصابات، فلما لم يجد النصارى وسيلة للانتصار عقدوا مفاوضات الصلح ورحلوا من تونس بعد أن فقدوا قائد الحملة الصليبية لويس التاسع بموته من مرض ألم به، ورحلوا عن إفريقية سنة 669هـ/1270م.

كانت تستجيب لزعماء العشائر والقبائل وخاصة القبائل العربية ، التي كانت تمتاز بالنخوة والشجاعة وشرف الدفاع عن الإسلام، بالإضافة إلى الدعاة والمحرضين غير الرسميين من الفقهاء والصلحاء، وهذه الكثرة لا تمثل القوة النظامية ولا الجيش السلطاني، وكان من أبرز المحرضين والمنادين بالجهاد والدفاع عن الأرض والدين لتلك الجموع الحاشدة أبو علي عمار المعروفي وأبو علي سالم القديدي، اللذان استطاعا حشد القبائل العربية وباقي سكان إفريقية ومن تطوع من بلاد المغرب الكبير للجهاد ضد النصارى، فقد كانوا يمشون كل يوم للجهاد إلى أن انقضت الحرب بين الفريقين بالتفاوض الصلح وخروج الصليبيين من بلاد إفريقية(ابن قنفذ، 1968، ص134).

في سنة 750هـ/1349م تولى حكم طرابلس ثابت بن محمد بن ثابت الذي اعتمده السلطان الحفصي أبو اسحاق إبراهيم والياً على طرابلس، وقد استقرت الأمور بطرابلس في فترة حكمه ونشطت تجارتها وازدهرت أحوالها وصارت بؤرة وهدفاً للطامعين والقراصنة(ابن قنفذ، 1968، ص170-171).

ونظراً للعلاقات المتميزة بين طرابلس والمدن الإيطالية، فإن المدينة كان يتردد عليها التجار الجنويون(*)، وخاصة الذين لهم سوابق في مجال القرصنة والذين أبهرتهم الحالة الاقتصادية للبلاد، فقرروا الغدر بها وأخذوا يتحينون الفرص حتى كان عام 755هـ/1345م، وهو العام الذي فشل فيه الأميرال الجنوي فيليب دوريًا في الهجوم على سردينيا، فاتجه تفكيره إلى الهجوم على طرابلس ورأى فيها فرصة مواتية لما يعلمه هو ورفاقه عن وسائلها الدفاعية وازدهارها النسبي، فأبحر إليها في أسطول يتكون من خمسة عشر سفينة حربية ورسى بمينائها ودخل البلاد هو ورفاقه في زي التجار ثم انتشروا في الأسواق، وقد تحدث ابن خلدون على عملية الجنويين فقال: "وكان التجار الجنويون يترددون إليها فاطلعوا على عوراتها وائتمروا في غزوها واتعدوا لمرساها ... وانتشروا بالبلد في حاجات، ثم بيتوا ذات ليلة"(ابن خلدون، 1992، ص468-469)(حنان، 2010، ص164).

وأشار ابن حجر العسقلاني إلى حاكم طرابلس وضعفه وقلة خبرته في الحكم حيث قال: "ثابت بن محمد بن ثابت الطرابلسي أمير طرابلس الغرب، ولي الأمر بعد أبيه، وكان شاباً غراً، فاحتال الفرنج عليه ...

(*) الجنيون: ينتمي الجنيون لمدينة جنوة وهي من بلاد الروم على ساحل بحر الشام وهي مدينة قديمة البناء حسنة الجهات، شاهقة لبناء، وافرة البشر، كثيرة المزارع والقرى والعمارات، وهي على قرب نهر صغير أهلها تجار مياسير سافرون براً وبحاً، ولهم أسطول ومعرفة بالحيل البحرية والآلات السلطانية ولهم بين الروم عزة نفس.

وأرسلوا من عندهم ترجماناً شيخاً بحرياً فرأى في البلد غلاء لقلة الحب عندهم آنذاك فتمت له الحيلة، وأشار على ثابت أن يجمع الأسلحة التي مع جند البلد ويجعلها عنده في القلعة ليطمئن إليه التجار الفرنج ينزلوا من مراكبهم ويبيعوا ما معهم من البضائع وذكر له إن الخمس الذي يخصه من البضائع يجتمع منه مال كثير وينتفع الناس"(العسقلاني، د.ت، ص329).

وانطوت الحيلة على أمير طرابلس، وتسلق الجنود في ليلة الأسوار وهاجموا المدينة ونادوا بالحرب، فاضطرب أمر الأهالي، ولم يكن أمامهم حل سوى النجاة بأنفسهم بعدما جردوا من أسلحتهم وهرب ثابت من السور، ونزل على عرب الجواري فقاموا بقتله لثأر قديم بينهم(ابن خلدون، 1992، ص569) (الزركشي، 1289، ص964).

وأسر الجنويون أهالي طرابلس، وظلوا بها حوالي خمسة أشهر، وعند عودتهم إلى جنوة نقلوا ما في طرابلس من متاع وأسروا حوالي سبعة آلاف شخص من النساء والأطفال ليقوموا ببيعهم كرقيق، إضافة إلى مبالغ مالية تقدر بمليون وثمانمائة ألف فلورين من الذهب(ابن خلدون، 1992، ص469).

ويتضح مما سبق أن مقتل ثابت بن محمد كان لسببين، أولهما أن سياسته الصارمة وكثرة استبداده لدرجة جعلت أبناء قبيلته يقتلونه لثأر قديم لديهم عنده، والثاني هو ضعف شخصيته وعدم اهتمامه بالمدينة مما جعله لا يستطيع الوقوف في وجه الجنويين مما جعل المدينة تقع بسهولة في قبضتهم وهذا الأمل ربما دفع قبيلة الجواري إلى قتله نتيجة لعدم إبدائه أية مقاومة، خاصة وأن أبناء هذه القبيلة اشتهروا بقوة البأس والشدة(ابن خلدون، 1992، ص469) (حنان، 2010، ص16). (الزركشي، 1289، ص964).

وبذلك أصبحت طرابلس تعاني من فراغ سياسي خاصة وأن الجنويين لم يكن لديهم رغبة في الاستمرار في احتلالها ولم تكن لدى فيليب دوريًا أية رغبة في الاستمرار في احتلال طرابلس(ابن خلدون، 1992، ص469) .

وهذا على ما يبدو دليل على ما فعله فيليب عندما تنازل عن المدينة لأحمد بن مكي صاحب قابس، وكذلك يمكن أن يعزى تنازله عن المدينة للثورات التي قامت ضده من سكان طرابلس وضواحيها، حيث فاوض أحمد بن مكي في شأن تسليم طرابلس مقابل فدية من المال، لأن أوضاع جنوة كانت مضطربة، وقد اشترط لتسليم المدينة مبلغ من المال وقدره خمسون ألف دينار من الذهب العين(حنان، 2010، ص168)..

وعلى الرغم من عدم توفر المبلغ لدى ابن مكي، حيث بعث إلى السلطان المريني أبي عنان يطلب منه المساعدة، إلا أن الجنويين عاجلوه في طلب الفدية فجمع ما عنده من مال، وأسهم أهل الخير من المناطق التونسية والقبائل القاطنة في تلك الأماكن بكل ما يملكون لاستيراد طرابلس(الزركشي، 1289، ص94).

وهذا الموقف دليل على الصحوة الإسلامية وعلى العلاقات الطيبة التي تربط بين أبناء المغرب الكبير رغم اختلاف الحكومات.

وفي عام 792هـ/1389م هجم النصارى على مدينة المهدية، حيث استطاعوا احتلال مينائها وإقامة برج عالي فيه، محاولين من خلال محاصرته المدينة، إلا أن أهالي هذه المدينة استطاعوا الثبات في وجه العدو ومنعه من دخول المدينة، قبل وصول الجيش الحفصي، وقد شاركت في مواجهة هذه الحملة القبائل العربية القاطنة في إفريقية وحثهم الشعراء لرفع الروح المعنوية للمجاهدين ضد النصارى ومنهم هذا الشاب العربي أحمد بن إسماعيل الزيات والذي قال:

يا فرنسيس هذه أخت مصر فتأهب لما إليه تصير

لك فيها دار ابن لقمان قبر وطواشيك منكر ونكير(ابن القنفذ، 1968، ص136)

ومن خلال ما تقدم يتضح أن للقبائل العربية دور كبير في صد الغزو الصليبي الذي تعرضت له إفريقية، وإنها لم تقف موقف المتفرج، بل شاركت سكان هذه المدن في الدفاع عنها وصد الأعداء الصليبيين في هجومهم على أية مدينة من هذه المدن مدافعة بقوة رجالها وعزائمهم في الدفاع عن الأرض والدين الإسلامي الحنيف .

رابعاً: دور القبائل العربية في دعم الثورات التي قامت ضد الدولة الحفصية :

إن السياسة التي اتبعها الولاة الحفصيون مع القبائل العربية في طرابلس، وخاصة بعد الولاء الذي قدمته في بداية العهد الحفصي، ونتيجة لسوء المعاملة من قبل الولاة الحفصيين لهذه القبائل، فقد اتخذت موقفاً معادياً للدولة الحفصية وأخذت تتحين لفرص للخروج على الدولة ومساندة كل الثائرين والمناهضين للأمراء الحفصيين، وأول هذه الانتفاضات أو الثورات هي ثورة مرغم بن صابر أحد زعماء قبيلة الجواري العربية

والتي يرجع سببها كما قال التجاني: "فكانوا (المجرسون)(*) يذيقون الأعراب شراً ويكفون منهم فساداً كثيراً وضراً ولم تزل العرب حاقدة عليهم إلى أن ضعف الأمر، وتمكن مرغم بن صابر من الدولة (التجاني، 2005، ص217) (حنان، 2010، ص100)..

ويبين هذا النص أن المجرسيين بالغوا في إذلال القبائل العربية فقد كانوا يتعرضون لأشد أنواع التعذيب والإرهاق الشديد، مما كان سبباً في حقد العرب عليهم.

وأخذ مرغم بن صابر في التقرب من الدولة الحفصية التي كانت تمنح زعماء القبائل بعض الامتيازات مقابل حمايتها وقت الشدة والحروب، واستطع الحصول على حجة مكنته(*)(التجاني، 2005، ص192) (التجاني، 2005، ص192) من امتلاك قرية جنزور في سنة 676هـ/1277م (التجاني، 2005، ص192-193) .

وبذلك استطاع السيطرة على قبيلة مجريس لأنهم كانوا منقسمين على أنفسهم، فحولهم إلى إقنان أرض، وأخذت أطماعه في تزايد، خاصة بعد ما تحالف مع ثائر آخر ظهر في منطقة طرابلس في سنة 681هـ/1282م عرف بالدعي واسمه أحمد بن مرزوق المسيلي الذي تنكر في شخصية الفضل بن يحيى الواثق(**)(ابن خلدون، 1992، ص682).

هكذا التفتت مصالح كل من مرغم بن صابر والدعي، ولإضفاء الصبغة الشرعية على حركتهما، سير مرغم وفدا إلى مصر لطلب تأييد السلطان المملوكي المنصور بن قلاوون في سنة 688هـ/1289م، والذي كان عائداً من غزواته ضد التتار ،فوجد رسل الأمير مرغم بن صابر على أبوابه محملة بالهدايا ومعها كتاب يطلب فيه الإذن من السلطان قلاوون بفتح بلاد المغرب، ويناشده بضرورة إرسال سنجق شريف يساعده في ذلك، إلا أن السلطان اعتذر بطريقة مهذبة وأبلغه بأنه مشغول في جهاده ضد التتار ولكنه يؤيد حركته(ابن خلدون، 1992، ص682).

(*) مجريس: هي فخذ م قبيلة هوارة سموا باسم أمهم (مجريس) واسم أبيهم (وخيعن) وله زوجة أخرى تسمى (تاسا) ينسب إليها التاسيون، فبنو مجريس وبنو تاسا بنو أب واحد.

(*)إذا تمكن مرغم بن صابر من الدولة طلب من الملك أخذ هذه القرية يظهر بأعطيها سنة ست وسبعين وستمائة ... وهو بالعلاقة التجارية ... وأيقن بتملكها ولم يكن يصدق بذلك ولا خطر له قط أن يجوزها سالك"

(**)عندما انخلع الواثق عن الأمر، كان له ثلاثة أولاد هم: لفضل والطاهر والطيب فكانوا معه ثم نما عنه للسلطان أبي إسحاق أنه كان ينوي الثوة وأنه متعاون مع النصاري على ذلك فقام أبو إسحاق باعتقاله مع أبنائه ثم ذبحهم في سنة 679هـ، واستوثق له الأمر.

بعد أن حصل مرغم على مباركة السلطان قلاوون بدأ هو وحليفه ثورتهم ضد الدولة الحفصية، وتمكن مرغم بن صابر من استمالة العرب حوله خاصة عرب بني ذباب، وقاما بمهمة أمر الدعي في طرابلس، وبدأ الحليفان عملياتهم، فكان أول عمل قام به هو محاصرة طرابلس التي كانت تحت زعامة محمد بن عيسى الهنتاني إلا أنهما فشلا في اقتحامها لمناعة أسوارها(ابن خلدون، 1992، ص690) (ابن القنفذ، 1968، ص211).

ثم توجها بعد ذلك إلى مهاجمة بطون قبائل هوارة القاطنة حول طرابلس فاستطاعا الايقاع بها، وبادرا إلى أخذ الأموال من قبال جنزور والماية(*) وزوارة(**)، وزواغة(***)(التجاني، 2005، ص109) ونفوسة وغريان لتمويل حركتهما(ابن خلدون، 1992، ص691)، بعدها قررا الزحف إلى قابس في سنة681هـ/1282م، والتي كانت تحت زعامة عبد الملك بن مكيي (681 – 700هـ/1282– 1300م) ففتح لهما المدينة ودخلاها وبايع أهلها الدعي في السنة ذاتها(ابن خلدون، 1992، ص691).

وقد أشار ابن خلدون إلى مبايعة ابن مكي للدعي وحليفه مرغم بن صابر بقوله:" ثم زحف إلى قابس فبايع له عبد الملك بن مكي وأعطاه صفقته طواعية(ابن خلدون، 1992، ص690) . ويقول الزركشي كذلك: ثم رحل (الدعي) إلى قابس وقد ظهر أمره، ولم يشك أهل الأوطان أنه من البيت الحفصي، فخرج ابن عبد الملك بن عثمان بن مكي فتح له قابس فدخلها وبايع له أهلها"(ابن خلدون، 1992، ص859).

(*)الماية: بلد غرب مدينة طرابلس بنحو 27كم وسميت بالماية نسبة إلى قبيلة بربرية من البربر البتر كانت تسكن هذه المنطقة، وكان يقال لها سلجامة(التجاني، 2005، ص109)

(**) زوارة: اسم مدينة من مدن طرابلس التي تقع بقرب الحدود الغربية، ومازالت تحمل هذا الاسم، وكانت تسمى كومطين ثم هجر هذا الاسم، اشتهرت بزوارة وهي مركز مهم من مراكز الحدود الطرابلسية الغربية، وكانت بها وقائع كبيرة في الحرب الطرابلسية(التجاني، 2005، ص188)

(***)زواغة: بلدة قديمة غربي طرابلس بنحو 72كم وهي قريبة من البحر ولها مرسى بحري وسميت باسم قبيلة كانت تسمى زواغة وتقع غربي صبراته بنحو 5كم. وسكانها من العرب العلاقة. (التجاني، 2005، ص142)

وأثناء تواجد الدعي وحليفه مرغم بن صابر بقابس جاءته بيعة أهالي جربة والحامة(****) وتفزاوة(*****) وتوزر (******)، تضامناً وتأييداً لحركته، وربما كانت هذه البيعة خوفاً من نواياه خاصة وأن الدولة الحفصية تمر بمرحلة صعبة بسبب المشاكل التي أحدثتها هذه الانتفاضات، ثم جاءته بيعة معظم بلاد قسطيلية، وتابعا حركتهما حتى وصلا إلى قفصة(****)(الإدريسي، 1994، ص44) فبايعه أهلها، وبذلك قويت شكوتهما وعظم أمرهما وصارا يهددان مصالح الدولة الحفصية، فألحقا بها ضررا كبيراً نتج عنه أن أصبحت جهود الدولة الحفصية مشتتة في عدة جهات للقضاء على هذه الثورات(ابن خلدون، 1992، ص690) .

من هنا يتضح أن جميع بلاد إفريقية بما فيها طرابلس كنت تعاني من الفوضى، فلم يكن أبو إسحاق يهتم لأمرهم، مما كان سبباً في كثرة مشاغبة القبائل العربية الضاربة بها والتي ساندت حركة الدعي ومرغم بن صابر .

بعد هذه الانتصارات التي أحرزها الدعي، أهدى إلى حليفه مرغم بن صابر ولاية طرابلس، وكتب له منشوراً بها مؤرخاً في السابع والعشرين من ذي القعدة من سنة 681هـ/1282م، ولقبه بأبي الوفاء نظراً لتحلفه معه ووفائه له(ابن خلدون، 1992، ص199).

ومن هنا يتضح أن مرغم بن صابر لم يكن يمتلك السند الذي يعتمد عليه الدعي في نسبه الحفصي، لذلك رضي ابن صابر بولاية طرابلس، وترك الدعي وحده يواصل ثورته والذي استطاع الدخول إلى مدينة تونس وبايعه أهلها، بعد معارك عنيفة مع الحفصيين حيث استطاع الانتصار عليهم لم ينج من المعركة التي وقعت في قلعة سنان عام 682هـ/1283م، إلا أبو حفص عمر بن أبي زكريا(ابن خلدون، 1992، ص199). الذي سمعت القبائل الهلالية بنجاته فتوافدت عليه وبايعته في سنة 683هـ/1284م وبلوغ

(****) الحامة: مدينة من جهة قسطيلية على مقربة من قابس، ماؤها شروب وبها نخل كثير وأهلها موصوفون بالشجاعة، وعليها كانت الوقيعة لملك الموحدين منصور بن يوسف

(*****) نفزاوة: مدينة من أعمال إفريقية قال البكري: وبها عين تسمى بالرطانة تاورغي، وهي عين كبيرة لا يدرك قعرها ولها سور صخر وطوب ولها ستة أبواب وفيها جامع وحمام وأسواق حافلة وكثيرة النخل والثمار. (التجاني، 2005، ص142).

(******) توزر: وهي قاعدة كور قسطيلية من بلاد الجريدية ولها سور عظيم حصين، وبها نخل كثير جدًا وثمرها كثير جداً ويعم بلاد إفريقية، وبها الأترج الكثير الطيب وعليها هلك علي بن إسحاق الميورقي جاءه سهم من ترقوته فقضى نحبه، وهي مدينة كبيرة قديمة عليها سور مبني من الحجارة. (التجاني، مصدر سابق، ص152)

(****) قفصة: مدينة كبية وقديمة وأزلية كان عليها سور صخري جليل بأحكم صناعة حديد العمل في مرآة العين، يقال إن الذي بناه شيبان غلام النمرود بن كنعان وكان اسمه منقوشاً على باب من أبوابها.

الخبر إلى الدعي ثارت حميته وبادر إلى اتهام وزيره ابن ياسين بالتواطؤ مع أبي حفص عمر، إلا أن الناس خذلوه فانهزم بالقرب من سبخة سيجوم، ودخل الأمير أبو حفص عمر إلى تونس وطهرها من شر الدعي واستولى على سرير ملكه وبويع له بالخلافة يوم الأربعاء الخامس والعشرين من ربيع الثاني سنة 683هـ/1284م، ولقب بالمستنصر، وألقى القبض على الدعي ونال منه لما ارتكبه من تنكيل بالحفصين (ابن القنفذ، 1968، ص145) (الزركشي، 1289، ص50)

ومن هنا يتضح أن للقبائل العربية دور مهم وكبير في هذه الثورة، حيث أن بتخلي هذه القبائل عن مساندة الدولة يمكن من الثائرون من السيطرة على معظم أجزاء الدولة والسيطرة على العاصمة الحفصية نفسها (تونس)، وعندما أيقنت هذه القبائل أن سياسة هؤلاء الثوار سوف ترهقهم بالضرائب الباهضة تخلوا عنها وخذلوها وبايعوا الأمير الحفصي، الذي بفضلهم استطاع استرجاع ملكه وعاصمته القضاء نهائياً على رأس الفتنة وقتله.

بعد أن قضت الدولة الحفصية على ثورة الدعي، والتي استمرت عاماً ونصف تقريباً ظهر ثائر جيد أخر آخر هو عثمان بن أبي دبوس، الذي فر إلى شرق الأندلس، بعد أن قضى المرينيون على آخر خلفاء الموحدين بمراكش سنة 668هـ/1269م، ونزل على حاكم أرغونة (الفونسو الثالث)، وتزامن ذلك مع وجود مرغم بن صابر في بلاد أرغونة، حيث أسرته إحدى لمراكب بنواحي طرابلس في سنة 682هـ/1283م، وباعته إلى حاكم أرغونة، أقام عنده أسيراً(ابن خلدون، 1992، ص703) (حنان، 2010، ص112).

وعقد الفونسو الثالث اتفاقاً مع ابن أبي دبوس تعهد فيه بتجهيز جيش وأسطول يغزو بهما إفريقية، مع دفع إتاوة سنوية لصاحب أرغونة، وإرجاع نفقات الحملة عند انتصاره وانتصابه على عرش إفريقية .

كما طلب الفونسو من مرغم بن صابر أن ينضم إلى جيش ابن أبي دبوس على أن يتعهد بدفع فدية فكه من الأسر، وأن يناصره في حملته ضد عمر الحفصي(ابن خلدون، 1992، ص703) .

وقد وقع الاختيار على طرابلس في النزول لأسباب أولها بعد طرابلس عن مركز السلطة الحفصية، والثاني استغلال زعامة مرغم بن صابر على بني ذباب في نواحي طرابلس، والثالث أن طرابلس كانت ذلك مسرحاً لثورة الدعي فهي محط أنظار كل من يحاول القيام بالثورة على الدولة الحفصية، ويبدو أن ابن أبي دبوس نظر إلى أبعد من ذلك، فهو متأكد فيما لو تم له السيطرة على طرابلس فسترحب قبائل العرب السليمة بذلك

لأن الدولة الموحدية كان لها الفضل على طرابلس في التخلص من سيطرة النورمان سابقاً، وكذلك على الجانب الآخر فإن مرغم بن صابر رحب بمساندة ابن أبي دبوس وذلك لأطماعه في الاستئثار بطرابلس، وليكمل دوره الذي بدأه مع الدعي في محاولة لاستقلال بطرابلس عن الدولة الحفصية(حنان، 2010، ص17).

وتنقل ابن أبي دبوس ومرغم بن صابر في نواحي طرابلس، بعد أن ضربا عليها حصاراً برياً وجيبا من أهلها الأموال لكي يتسنى لهما دفعه للأسطول الأرغواني(ابن خلدون، 1992، ص704). وعاد مرغم بن صابر إلى قبيلته، أما ابن أبي دبوس فقط توجه إلى قابس لأن واليها ابن مكي تعاطف معه، وتضامن مع الدعوة الموحدية، حيث ظل ابن أبي دبوس في قابس مدة ثم استدعاه شيخ الكعوب أحمد بن أبي الليل إلى تونس وبايعه على الحاضرة، فخرج لهم الوزير أبو عبد الله بن يرزكين واستطاع هزيمتهم، وقفل ابن أبي دبوس راجعاً إلى طرابلس ولقى حتفه في جزيرة جربة، بذلك انتهت ثورته(ابن خلدون، 1992، ص704)

بالإضافة إلى الثورات الكبيرة لتي قامت في وجه الدولة الحفصية وبمساندة ودعم كبير من القبائل العربية، فإن هناك بعض الثورات والتي اعتبرت صغيرة بعض الشيء مقارنة بالثورات التي سبق ذكرها.

وأولها كانت في عهد االأمير أبي زكريا الحفصي، حيث شقت عصا الطاعة قبائل بني مرداس، الذين كانت لهم حظوة خاصة عند السلطان والتي استطاع السلطان الحفصي القضاء عليها بمساعدة قبائل الكعوب، بإثارة الفتنة بين هاتين القبيلتين(ابن خلدون، 1992، ص199).

وغيرها الكثير من الانتفاضات والثورات التي قامت بها القبائل العربية ضد السلطة الحاكمة في تونس .

ونستنتج مما سبق ذكره أن للقبائل العربية الدور الكبير في انتشار الثورات والانتفاضات التي قامت ضد الدولة الحفصية، والتي كانت نتيجة للظلم الذي وقع على بعض القبائل العربية سواء من السلاطين الحفصيين أنفسهم، أو من الولاة التابعين للدولة من سوء المعاملة وعدم الاحترام، مما جعل هذه القبائل تحقد على السلطة وتتحين الفرص للخروج على الدولة، كما حدث مع قبيلة الجواري في ضواحي طرابلس .

بالإضافة إلى السياسة التي استخدمها بنو حفص مع هذه القبائل والمتمثلة في زرع الفتن بين هذه القبائل ومساندة قبيلة على أخرى ودعم قبيلة على قبيلة ثانية، زادت من حدة الحقد والكراهية عند بعض القبائل

لهؤلاء السلاطين ونتيجة لهذه السياسة المستخدمة من سلاطين الدولة الحفصية مع القبائل العربية في فترات قوة الدولة، فإنه في مراحل ضعفها استغلت تلك القبائل ذلك الضعف وتمردت على الدولة وساندت العديد من الثوار الخارجين على السلطة الحاكمة في إفريقية.

خامساً: العرب وصراع الأمراء الحفصيين على السلطة :

إن العلاقة بين القبائل العربية والسلطة الحفصية، لم تكن كلها مواجهة أو عداء أو معاونة في الجهاد، فقد تجد ظروفاً يحتاج فيها أحد أبناء البلاط الحفصي والقادة إلى مساندة القبائل العربية، فقد إلتجأ القائد ظافر إلى عرب الدواودة بعد الوشايات التي أوقعت به، على الرغم من أنه هو الذي أنقذ الخليفة الحفصي من محاولة الانقلاب التي دبرها أحد الأندلسيين(حنان، 2010، ص17).

في عام 651هـ/1253م هرب أحد إخوة الخليفة المستنصر ويدعى أبا إسحاق إبراهيم، الذي كان محل مراقبة مشددة، وكان يتألم من ذلك الوضع المكدر، فالتجأ هو الآخر إلى عرب الدواودة الذين بايعوه في زراية وبفضل مساندتهم ومساعدة القائد ظافر بالإضافة إلى مساعدة أحد أعيان بسكرة(الإدريسي، 1994، ص264)(*)، ويدعى الفضل بن علي من عائلة بني مزني، أخذ يتأهب للاستيلاء على قابس، إلا أن ظافر تخلى عنه، فانجر عنه ذلك وتشتت أنصاره، واضطر إلى اللجوء إلى تلمسان ومن ثم انتقل إلى الأندلس(برشنفيك، 1988، ص71). إلى أن سنحت له الفرصة مرة أخرى في عهد أخيه الواثق فرجع إلى تونس واستطاع الوصول إلى الحكم.

وظهر ثائر آخر من البيت الحفصي على الأمير المستنصر وهو ابن عمه أبي القاسم بن أبي زيد، الذي التجأ إلى قبيلة الدوادة من بني رياح الذين بايعوه، ولكنه أحس بعدم حماس العرب له وخاف من تخليهم عنه، فرحل عنهم إلى غرناطة (**) بالأندلس(المطوي، 1986، ص184) .

ووقفت القبائل العربية إلى جانب أبي زكريا إبراهيم الحفصي في ثورته ضد عمه عمر الحفصي، وأبو زكريا هذا كان لاجئاً عند عثمان بن يغمراسن صاحب تلمسان الذي منعه من الخروج ومحاربة عمه أمير الدولة

(*) بسكرة: بلد بالمغرب من نواحي الزب بينها وبين قلعة بني حماد مرحلتان، فيها نخل وشجر، وقصب جيد، وهي مدينة مسورة ذات أسواق وحمامات وأهلها علماء على مذهب أهل المدينة.

(**) غرناطة: مدينة بالأندلس وهي من مدن البيرة وهي محدثة من أيام الثوار بالأندلس، وإنما كانت المدينة المقصودة البيرة فخلت وانتقل أهلها إلى غرناطة ومدنها وحصن أسوارها وبني قصبتها حبوس الصنهاجي.

الحفصية وذلك لاتفاق بينهما إلا أنه تظاهر بالخروج للصيد كعادته، حيث ذهب إلى داود بن هلال زعيم بني عامر من قبائل بني زغبة، الذين بايعوه، وانضم إليهم بنو عطية بن سلمان من رؤساء الدواودة، وبهم أصبح لأبي زكريا أنصار وأتباع مما شجعه على تحقيق آماله(المطوي، 1986، ص268) .

كما ساندت قبيلة الجواري ابن اللحياني في طرابلس حيث أبدى أفرادها استعدادهم لمناصرته، وانضموا إلى الجيش الذي كونه في المدينة كقوة للدفاع ضد أي خطر يهددها، واستطاع هذا الجيش الذي كونه في المدينة كقوة للدفاع صد أي خطر يهددها، كما تمكن من تحقيق العديد من المهام التي كلف بها(ابن خلدون، 1992، ص754).

ولعبت القبائل العربية دوراً كبيراً في الصراع القائم بين محمد بن أبي عمران والحكومة الحفصية في تونس خاصة قبائل الكعوب(ابن خلدون، 1992، ص715)، وقد أشار البرغوثي إلى دور القبائل العربية في الصراع القائم بين محمد بن أبي عمران والسلاطين الحفصيين بقوله: "أما طرابلس فقد ولتها بعد رحيل اللحياني عنها أبو عبد الله محمد بن أبي عمران صهر اللحياني وقريبه، واجتمع حوله رؤساء القبائل العربية المقيمة حول طرابلس وفي مقدمتهم حمزة بن أبي الليل وشجعوه على مهاجمة تونس"(ابن خلدون، 1992، ص399). ووصل دور العرب في الصراع بين الحفصيين إلى حد السيطرة على الخلفاء وتسيير الشؤون، ويؤكد ذلك قول ابن خلدون "ورأى حمزة أن ابن أبي عمران غير مغن عنه فصرفه إلى مكان عمله"(ابن خلدون، 1992، ص764).

ومن خلال ما تقدم يتضح أن القبائل العربية لعبت دورً كبيراً ومهماً في الصراع القائم على السلطة في الدولة الحفصية، وفي مساعدة الخارجين على الخلفاء من البيت الحفصي، ووصل ذلك إلى حد السيطرة على هؤلاء الثائرين إلى أن أصبحوا ألعوبة في أيدي هذه القبائل تسيرهم حسب مصالحهم الشخصية .

سادساً: دور القبائل العربية في انهيار الدولة الحفصية:

بدأ صراع القبائل العربية مع الحفصيين في فترة مبكرة من حكمهم لإفريقية، خاصة مع عرب رياح الذين كانت تتزعمهم قبيلة الدواودة، واعترفت القبائل الأخرى بهذا الدور، مما دفع بالدولة الحفصية إلى التنكر لهذا الدور وأخذت تولي عليهم عرب الكعوب ومرداس الذين استطاعوا طرد الدواودة من شرق المغرب الأدنى إلى غربه(ابن خلدون، 1992، ص290) .

ومن هنا بدأت حالة العداء بين عرب الدواودة والدولة الحفصية وأصبحت أراضيهم ملجأ لمناهضي ومعارضي السلطنة الحفصية خاصة من الأسرة الحاكمة، ففي سنة 661هـ/1262م التجأ أحد أبناء عمومة المستنصر بالله، وهو أبو القاسم بن أبي زيد إلى عرب الدواودة الذين رحبوا به، وساندوه بقيادة شيخهم شبل بن موسى ورأى المستنصر بالله في ذلك تحديًا للسلطة الحفصية، فجهز حملة عسكرية سنة 62هـ/ 1263م زحف بها على أراضي الدواودة حتى وصل إلى المسيلة(الإدريسي، 1994، ص254)(*).

وشتت شملهم، ولكن هذه الحملة لم تنه الصراع الذي بدأته تلك القبال فعادت قلاقلها ضد الدولة من جديد فرجع إليهم المستنصر بالله بعد عدة سنوات، وساندته في هذه الحملة قبائل الكعوب وذباب، فاستسلم إليه فرع منهم وعلى رأسهم بنو عساكر، وهرب الباقون إلى جنوب بسكرة باتجاه الصحراء، وحاول المستنصر بالله تتبعهم حتى قبض على شيخهم شبل بن موسى، وعدد كبير من أقربائه الذين أمر بقتلهم وتشريد أتباعهم(ابن خلدون، 1992، ص290) .

ونتيجة لتلك الكارثة التي ألمت بعرب رياح، اضطرت بعض قبائلها إلى الهجرة نحو الغرب، فلجأ بنو يحيى إلى تلمسان، وبنو محمد بن مسعود إلى فاس(الإدريسي، 1994، ص242)(**)، حيث استقروا في هذه المناطق وأخذوا يعيدون تنظيم صفوفهم من جديد لأجل العودة إلى مواجهة الدولة الحفصية، ففرضوا طاعتهم على منطقة واركلان وقصور ريفة ثم تحولوا إلى منطقة الزاب(الإدريسي، 1994، ص263)(***)، وهزموا عامل الدولة الحفصية ابن عتوة، وبالتالي سيطروا على إقليم واسع من المغرب الأوسط مما جعل الدولة الحفصية تهادنهم وتمنحهم تلك المناطق خضوعاً للأمر الواقع(ابن خلدون، 1992، ص290)

لم تكتف عرب رياح بهذا الصراع بل استغلت الصرع القائم في البلاط الحفصي وتدخلت فيه، فأيدت في سنة 684هـ/1286م الأمير أبا زكريا يحيى الثائر على عمه الأمير أبي حفص عمر وساندته في الاستيلاء

(*) المسيلة: من بلاد الزاب بالمغرب بقرب قلعة أبي الطويل، وهي مدينة جليلة على نهر يسمى نهر سهر في بساط الأرض، ومنبع نهر سهر في مدينة الغدير، وأسس المسيلة أبو القاسم إسماعيل بن عبيد الله الشيعي سنة 310هـ وكان المتولي لبنائها علي بن حمدون بن سماك الجزاعي المعروفة بين الأندلسي فلما أتمها أمره الشيعي بأمرها.

(**) فاس: مدينة مشهورة كبيرة على بر المغرب من بلاد البربر، وهي حاضرة البحر وأجل مدينة قبل أن تختط مراكش، وفاس محطة بين ثنتين عظيمتين، وقد تصاعدت العمارة جنبها على الجبل حتى بلغت مستواها رأسه وقد تفجرت بها عين تسيل إلى قرارة واديها إلى نهر متوسط مستنبط على الأرض.

(***)الزاب: كورة عظيمة ونهر جرار بأرض المغرب على البر الأعظم عليه بلد واسعة وقرى متواطئة بين تلمسان وسلجامة والنهر متسلط عليها وهي كلمة بربرية تعنى السبخة

على مدينة بجاية، وقسنطينة(*)، ومكنته من الاستقلال كامل القسم الغربي من السلطنة الحفصية الذي ضم الجزائر وبجاية وقسنطينة، وتلقب بالمنتخب لإحياء دين الله، وانقسمت بالتالي الدولة الحفصية إلى دولتين(ابن خلدون، 1992، ص306).

ونظراً لهذا الضعف الذي حل بالدولة الحفصية، فإن سلاطينها بدأوا في التحالف مع بقية القبائل العربية الأخرى لدعم حكمهم وللتصدي ومقاومة الثورات لتي تثيرها قبائل رياح، فتحالفوا في بداية القرن الثامن الهجري، الرابع عشر الميلادي، مع قبائل مرداس وحصين ودلاج بزعامة الكعوب المقيمين في المنطقة الوسطى والشرقية من البلاد الحفصية، ومنحهم السلطان أبو حفص عمر الثاني(747-748هـ/ 1346-1347م) الذي وصل إلى سدة الحكم بواسطتهم، الإقطاعات وتحصيل الجباية من القبائل المستقرة، هذه الامتيازات أثارت القبائل الأخرى وكانت سبباً في بعض الفتن في البلاد، والتي انتهت بالسيطرة المرينية على الدولة الحفصية في منتصف القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي(ابن خلدون، 1992، ص26) (الزركشي، 1289، ص44-45).

استمرت فيما بعد قلاقل القبائل العربية في الدولة الحفصية وكثر تدخلهم في شئونها بقيادة أولاد أبي الليل حتى سقوطها في أواخر القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي (879-893هـ/1435-1487م) في الاستيلاء على الحكم بتونس وقام أولاد أبو الليل بحماية منافسيهم ومن بينهم محمد بن الحسين ابن السلطان أبي العباس وعمه أبو الحسن ابن السلطان أبي فارس، وأمام التهديدات التي وصلتهم من السلطان الحفصي فقد تم تسليم المنافس الأول محمد بن الحسن إلى السلطة في تونس سنة 839هـ/1435م، أما المنافس الآخر أبو الحسن فقد حظي بمساعدة كبيرة منهم واستدعوه من العاصمة إثر انسحابهم من مشارفها بعد هزيمتهم على يد أبي عمرو عثمان وقام بالمشاركة معهم في حصار مدينة قسنطينة التي صمدت أمامهم بقيادة العلج نبيل، فرحلوا عنها إلى تونس مرة أخرى والتقوا مع السلطان أبو عمرو عثمان في معركة حاسمة، انتهت بانتصار السلطة المركزية وحلفائها من أولاد مهلهل والقبض على زعماء أولاد أبي الليل سنة 840هـ/1436م(الزركشي، 1289، ص120-121).

(*) قسنطية: هي مدينة أولية كبيرة آهلة فيها آثار للأول كثيرة الخصب رخيصة السعر على نظر واسع وقرى عامرة ، وهي حصينة في غاية المنعة والحصانة لا يعلم بأفريقية أمنع منها بل ليس لها نظير إلا مدينة رندة بالأندلس، وقسنطينة على جبل عظيم من حجر صلد

لم يقف الصراع بين أولاد أبي الليل والدولة الحفصية وحلفائها من أولاد مهلهل الذين تضايقوا من الإجراءات التي اتخذتها ضدهم والتي من أهمها خفض المزايا والمرتبات التي كانت تمنحها لهم فانتقد هؤلاء السلطان أبا عمرو عثمان وثاروا ضده سنة 867هـ/1462م، وقام السلطان إثر ذلك باستبدال شيوخهم الثائرين وأخذ أولادهم رهائن وتابع مع الشيوخ الجدد مطاردتهم حتى ألجأهم إلى الصحراء ولكنهم بعد معاناة ومشقة وذل رجعوا طائعين إليه فعفى عنهم بشرط التخلي عن عدائهم للدولة الحفصية والاعتراف بالشيوخ الجدد(الزركشي، 1289، ص132-138).

وفي فترة حكم أبي عبد الله محمد (899- 932هـ/1493- 1526م) وهو الأمير الحادي والعشرون للدولة الحفصية والذي يعتبره البعض بأنه آخر حكام الدولة الحفصية لأنه جاء والدولة على مشارف الانقراض(أبي دينار، 1993، ص ص150-151). فقد ثارت القبائل العربية بإفريقية بزعامة الشابيين وتمكنوا من الاستيلاء على القيروان(*)(الإدريسي، 1994، ص284) في عهد الحسن بن محمد (932-950هـ/1526-1543م) وإنزال الهزيمة بالقوات الحفصية (مقديش، 1988، ص606-611).

ومن خلال ما تقدم يتضح لنا أن القبائل العربية أسهمت مساهمة كبيرة في اضطراب الدولة الحفصية وكان لها نصيب وافر في تفاقم الأوضاع التي كانت تدنو من الفوضى والانهيار .

ونستنتج كذلك أن هذه القبائل كانت تنتهز الفرص ولم تكن من صانعيها وبالتالي لا يمكن اعتبارها المسؤولة الوحيدة عن ضعف الدولة الحفصية وسقوطها.

الخاتمة

وهكذا يتضح لنا أن القبائل العربية في ليبيا مثل ما كان لها دوراً بارزاً وكبير في مساعدة الحفصيين في السيطرة على طرابلس الغرب وإسقاط الدولة الموحدية، فقد كان لها نفس الدور وإن لم يكن أكبر وأكثر فاعلية في اضطراب الدولة الحفصية، كما كان لها نصيب وافر في تفاقم الأوضاع التي كانت تقرب الدولة الحفصية من الفوضى والانهيار، هذه القبائل التي يتضح لنا أنها كانت تنتهز الفرصة التي لم تكن من صنيعها وبالتالي لا يمكننا اعتبارها المسؤولة الوحيدة عن ضعف الدولة الحفصية وسقوطها.

(*)القيروان: قال الأزهري: القيروان مرعب وهو بالفارسية كاروان، وقد تكلمت به العرب قديماً وهي مدينة عظيمة بإفريقية عمرت دهراً وليس بالقرب مدينة أجل منها.

وبالتالي نلاحظ أن سلاطين الدولة الحفصية عندما بدء الضعف يدب في دولتهم اصبحوا يحاولون جاهدين لعقد اتفاقيات وتحالف مع القبائل العربية لدعمهم ومساعدتهم في القضاء على الثورات والفتن التي تثيرها بعض القبائل الآخرى.

مما سبق نلاحظ دور القبائل العربية لم ينته عند حدود معينة في البلدان المغاربية فقط بل تعداها، حيث عملت بطريقة غير مباشرة إلى نشر الإسلام وذلك عن طريق دفع بعض القبائل المغاربية في أماكن استقرارها نحو الجنوب ورحيل بعض القبائل العربية ووصولها إلى بلاد السودان واستقرارها في بعض المناطق هناك.

وهذا إن دل على شيء فإنه يدل على أن القبائل العربية كانت بالقوة بما كان لدرجة أن باستطاعتها التأثير على سياسة دول وإقامتها أو إسقاطها في حال نشب عداً معها.

وهذا الأمر يتجلى واضحًا في وقوف القبائل العربية مع الدولة الحفصية وقيامها بمساعدة هذه القبائل وكيف أن هذه القبائل كان لها دور بارز في إسقاطها.

وفي نهاية الخاتمة يوصي الباحث بالاهتمام بتاريخ القبائل العربية في منطقة المغرب الكبير ودراسة دورها الحضاري والسياسي.

ويتضح أيضاً أن العداء بين العرب والحفصيين قد بدأ في فترة مبكرة من حكمهم لإفريقيا، خاصةً مع عرب قبائل الرياح الذين كانت تتزعمهم قبيلة الدواودة، واعتراف القبائل العربية الأخرى بهذا الدور الذي دفع بالحفصيين إلى التنكر وطرد هذه القبائل من شرق المغرب إلى المغرب الأدنى.

ومن هنا بدأت حالة العداء بين القبائل العربية في ليبيا وبين الدولة الحفصية هذا العداء الذي ساعد في سقوطها نهاية الأمر.

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر

1. ابن أبي دينار، محمد بن أبي قاسم الرعيني القيرواني (ت1092هـ/ 1681م)، المؤنس في أخبار أفريقيا وتونس، دار المسيرة، لبنان، ط3، 1993م.
2. ابن حجر العسقلاني، (ت: 852هـ-1449م) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، دار الجيل، بيروت، ج4.
3. ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد، (ت: 808هـ/1405م) العبر وديوان المبتدأ والخبر، دار الكتب العاملية، بيروت، 1992م.
4. ابن قنفذ، أبو العباس أحمد بن حسين بن علي بن الخطيب القسنطيني (ت810هـ/ 1340م) الفارس في مبادئ الدولة الحفصية، تحقيق: محمد الشاذلي النيفر، عبدالمجيد التركي، تونس، 1968م.
5. أبو عبد الله محمد بن أحمد الشماع، (ت: 873/ 1458م) الأدلة البينة النورية في مفاخر الدولة الحفصية، تح/ الطاهر بن محمد بن محمد المعموري، الدار العربية للكتاب، تونس، 1984م.
6. الإدريسي، أبي عبدالله محمد بن محمد بن عبدالله (ت558هـ/ 1162م) نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مجلدين، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1994م.
7. الإمام أبو عبد الله محمد بن خلفة الوشتاني الأبي المالكي، (ت: 828هـ/ 1424م) شرح صحيح مسلم (إكمال المعلم)، ج5، مطبعة السعادة ، مصر ، 1328هـ.
8. التجاني، أبو عبدالله بن محمد (ت717هـ/ 1317م) رحلة التيجاني، قدم لها حسن حسني عبدالوهاب، الدار العربية للكتاب، طرابلس، 2005.
9. الحموي، شهاب الدين أبي عبدالله ياقوت (ت: 626هـ/1228م) معجم البلدان، 5 أجزاء، دار صادر، بيروت، 1977م.
10. الزركشي، أبو عبدالله محمد بن إبراهيم اللولوي (ت: 932هـ/ 1525م) تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تونس، 1289هـ.
11. محمود بن سعيد مقديش، (ت: 1228-1813) نزهة الأنظار في عجائب التاريخ والأخبار، تح علي الزواوي، محمد محفوظ، دار الغرب الإسلام، بيروت،ج1، 1988.

ثانياً: المراجع

1. محمد بن مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، دار الفكر.

2. حنان محمد سويد، طرابلس خلال العهد الحفصي، منشورات المركز الوطني للمحفوظات والدراسات التاريخية، دار الكتب الوطنية، بنغازي،2010م.

3. روبار برنشفيك، تاريخ أفريقيا في العهد الحفصي، ترجمة حمادي الساحلي، جزئين، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1988م.

4. محمد العروسي المطوي ، السلطنة الحفصية– تاريخها السياسي زدزرها في المغرب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986م.

5. محمد الهادي العامري، تاريخ المغرب في سبعة قرون بين الازدهار والذبول، تونس، 1974م.